

## 155139 - التوفيق بين آيات قرآنية تثبت السمع والكلام للكفار في الحشر تارة وتنفيه عنهم تارة أخرى

### السؤال

يتحدث الله تعالى في سورة مريم الآية 38 عن المشركين حينما يقول ( أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) . وفي سورة الإسراء آية 97 ذكر الله سبحانه ( وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وُكُومًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ) . ليس هناك من احتمالية التناقض في القرآن ؛ لكني ليس لدي العلم الأساسي لفهم ذلك ، فلو ألقيت الضوء على هذا الأمر فلربما ساهم في ارتقاء إيماني .

### الإجابة المفصلة

الحمد لله.

ليس بحمد الله في نصوص الوحي ما يناقض بعضه بعضاً ، وقد يسرَّ الله تعالى لكتابه من يُعنى به تفسيراً لكلماته وتوضيحاً لمشكلاته وبياناتاً لما ظاهره التعارض ، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين فقهوا مراد ربهم تعالى في كتابه فوضعوا الأمور في نصابها وبيّنوا للناس ما أغلق فهمه عليهم .

والإشكال الذي ذكره الأخ قديم الإيراد ، وقد أجاب عليه العلماء أجوبة محكمة مسددة ، أبرزها جوابان :

الجواب الأول :

أن مشاهد اليوم الآخر ومراحلها كثيرة ، ففي بعضها يكون الكفار عمياً وبكماً وصُمّاً على الحقيقة ، وفي بعضها الآخر يرون ويتكلمون ويسمعون .

وهو قول أبي حيان وابن القيم وابن كثير والشنقيطي وغيرهم كثير .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

فإن قال قائل : وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عمياً وبكماً وصُمّاً وقد قال ( وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ) فأخبر أنهم يرون ، وقال ( إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ) فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟ .

قيل : جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة ، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال آخر غير حال الحشر .

" تفسير الطبري " ( 17 / 559 ، 560 ) .

وقال ابن كثير - رحمه الله - :

وقوله : ( عُمِيًّا ) أي : لا يبصرون ( وَكُمًّا ) يعني : لا ينطقون ( وَصُمَّا ) : لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ؛ جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصمماً عن الحق ، فجازوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه .  
" تفسير ابن كثير " ( 5 / 123 ) .

والجواب الثاني :

أن النظر والكلام والسمع المثبت لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه ، والمنفي عنهم خاص بما لهم فيه فائدة ، فهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً يسرهم ، ولا ينطقون بحجة .

وهو مروى عن ابن عباس والحسن البصري .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

ويجوز أن يكون ذلك ، كما روي عن ابن عباس قوله ( وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَكُمًّا وَصُمَّا ) ثم قال ( وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا ) وقال ( سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ) وقال ( دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ) ، أما قوله ( عُمِيًّا ) : فلا يرون شيئاً يسرهم ، وقوله ( كُمًّا ) : لا ينطقون بحجة ، وقوله ( صُمَّا ) : لا يسمعون شيئاً يسرهم .

" تفسير الطبري " ( 17 / 560 ) .

والقول الأول أظهر وأقوى .

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في ذكر وجوه الجمع بين ذلك :

قوله تعالى ( وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَكُمًّا وَصُمَّا ) الآية ، هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن الكفار يُبعثون يوم القيامة عمياً وبكماً وصمماً ، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى ( أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ) ، وكقوله ( وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ) ، وكقوله ( رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ) الآية ،  
والجواب عن هذا من أوجه :

الوجه الأول : هو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته ، ويكون ذلك في مبدأ الأمر ، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم ، فيرون النار ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع .

الوجه الثاني : أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ، ولا يسمعون كذلك ، ولا ينطقون بحجة ، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعون ، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وروى أيضاً عن الحسن كما ذكره الألويسي في تفسيره ، فنزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به كما تقدم نظيره .

الوجه الثالث : أن الله إذا قال لهم ( اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ) وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج ، قال تعالى ( وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ) ، وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة .

" دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب " ( ص 143 ) .

وفي " أضواء البيان " ( 4 / 129 ) قال : أظهرها عندي : الأول .

وقد فصل ابن القيم رحمه الله الحال الذي يُحشرون فيه على وجوههم عمياً وبكماً وصمماً وهو من موقف الحشر إلى وقت دخولهم النار ، وأنهم يكونون قبل ذلك يرون ويتكلمون ويسمعون .

قال ابن القيم - رحمه الله - :

وفصل الخطاب : أن الحشر هو الضم والجمع ، ويراد به تارة : الحشر إلى موقف القيامة كقوله النبي صلى الله عليه وسلم ( إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا ) وكقوله تعالى ( وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ) ، وكقوله تعالى ( وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) يراد به : الضم والجمع إلى دار المستقر ، فحشر المتقين : جمعهم وضمهم إلى الجنة ، وحشر الكافرين : جمعهم وضمهم إلى النار ، قال تعالى ( يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ) ، وقال تعالى ( احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار ؛ لأنه قد أخرج عنهم أنهم قالوا ( يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ) ثم قال تعالى ( احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ) وهذا الحشر الثاني ، وعلى هذا : فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار ، فعند الحشر الأول : يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون ، وعند الحشر الثاني : يُحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصمماً ، فلكل موقف حال يليق به ويفتضيه عدل الرب تعالى وحكمته ، فالقرآن يصدِّق بعضه بعضاً ، ( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ) .

" مفتاح دار السعادة " ( 1 / 45 ، 46 ) .

والله أعلم